

مفكر فرنسي يلقي أضواء جديدة على عبقرية ابن رشد

الخيال هو مصدر الفكر عند فيلسوف قرطبة



يبدو عنوان "أنا أتخيل" مستقرا للفكر الغربي منذ البداية، فهو يحيلنا مباشرة على المعادلة العقلانية الشهيرة لديكارت "أنا أفكر إذن أنا موجود"، بقدر ما يسائل هذه المسلمة التي عمرت في الفكر الغربي ولا تزال تمثل أساسه العقلاني. "أنا أتخيل: ابن رشد وفضاء القدرة" هو الكتاب الجديد للمفكر الفرنسي جان باتيست برونو، والذي يعيد اكتشاف عبقرية فيلسوف قرطبة، وتصوره للعقل، بوصفه قوة مشتركة لدى الإنسانية، بينما كان الخيال عنده هو الباعث على التفكير... على أساس أن التفكير ليس نتاجا نهائيا للعقل، بل هو نتاج الخيال.



مخلص الصغير
كاتب مغربي

بعد أربعة كتب عن ابن رشد، منذ "تغيير الموضوع: تفكير ابن رشد"، وصولا إلى "ابن رشد المقلد"، يأتي كتاب "أنا أتخيل: فضاء القدرة عند ابن رشد"، للمفكر الفرنسي جان باتيست برونو ليتوج مسار أحد أهم المتخصصين المعاصرين في الرشدية، على مدى عشرين عاما.

وإذا كانت الأبحاث السابقة بمثابة دراسات مقارنة في الفكر الوسيط، ما بين طروحات ابن رشد وطروحات توما الأكويني وتوماس ويلتون والبرغري دانتى والرشديين اليهود والمسيحيين، فقد انتهت المفكر الفرنسي في كتابه الحالي إلى صياغة قراءة جديدة وغير مسبوقه للدرس الرشدي، خاصة ما يتعلق بعقلانية ابن رشد. فلئن كانت الفلسفة الغربية قد دأبت على اعتبار ابن رشد مرجعها العقلاني، فإن هذا الكتاب يؤكد أن ابن رشد كان أكبر من مجرد عقلاني، وأن فلسفته جاوزت العقلانية نحو نظرية كبرى في الخيال.

بورترية ابن رشد

في الفصل الأول من هذا الكتاب الجديد، يتأمل جان باتيست برونو لوحة جدارية لابن رشد رسمها الفنان الإيطالي أندريا فريسي دي بونايطو، الذي عاش في القرن الرابع الميلادي، وهي لوحة غلاف الكتاب.

في هذه اللوحة يضع ابن رشد مرفقه على الكتاب، ويده تحت فكه، بينما يتساءل برونو: ما الذي يفعله ابن رشد، لياتينا بالجواب سريعا "إنه يفكر". من هنا جاء الكوجيتو الديكارتي "أنا أفكر إذن أنا موجود"، لكن برونو سوف يتقدم الحداثة الغربية، التي اقتضت على الأخذ بمقولة "الفكر"، و"التفكير" واعتبره من نتاج العقل. بينما هذا "التفكير" ليس إلا خلاصة لعملية أعمق من ذلك، ذلك أن الإنسان إنما "يخس"، ثم يتخيل، ويوصفه إنسانا، فهو "يفكر"، أو يتصور، بمعنى أنه ينتج ويركب موضوعات عامة ومفاهيم، والحال أن ذلك لا يفيد فعل فكر، يخلص المفكر الفرنسي، مستفيدا من بورترية ابن رشد ومنهجه الفلسفي، من هنا، يقر برونو بأن التفكير ليس وليد

العقل، رغم أنه يتم في حضوره. "التفكير فعل نفسي تحت عقلي بالنسبة إلى الإنسان العاقل، بمعنى أنه عملية النفس داخل الجسد". ويفرق المفكر الفرنسي بين التفكير والتفعل، بمعنى إعمال العقل، وموضوعه المفاهيم الكلية. إن موضوع التفكير هو الصور والتخييلات. من هنا، يدعونا برونو إلى إحياء معادلة القرون الوسطى، حسب خلاصته المركزية، وهي أن عبارة "أفكر" تعني "أتخيل".

ويقول الباحث بأن الفلاسفة العرب، وهم "المعلمون الكبار" على حد توصيفه، هم الذين أثاروا هذه المسألة قبل غيرهم، هم الذين ورثوا الفكر الإغريقي "الديانوي"، ونظروا لحياة نفسية جديدة أصبح فيها الدماغ ليس مكان الذهن أو العقل بشكل مركزي، بل الفاعل الأساسي بواسطة الصور لكل فعل ذهني سابق على التفكير.

وبحسب هذا الكتاب دائما، كان ابن رشد هو الذي قارب هذه المسألة بشكل أفضل، ويرجع ذلك إلى "الوصل الذي أقامه بين الخيال ومذهبه (المعلمون) في العقل". حيث يتوفر فعل التفكير عند ابن رشد على القوة المفكرة، نعم، ولكن في مقابل "القوة التخيلية" أيضا، أي التخييلات التي تنتظم وفق عقل منفصل عن الجسد. ولذلك، فإن هذا العقل الرشدي هو عقل مطلق وأزلي، إضافة إلى "الفرغ

الخيال الفاعل

يرى المفكر الفرنسي أن عبقرية ابن رشد حسب الأوروبيين هي أنه "فصل العقل عن الجسم ورفع من شأنه". ويرد

الفطري لطبيعته". وبهذا، يكون ابن رشد قد حدد فعل التفكير داخل هذا الفضاء المفتوح، الذي أسماه فيلسوف قرطبة "فضاء القدرة".

في الأخير حاول المفكر الفرنسي أن يعود بنا إلى جدارية ابن رشد، كما تخيلها أندريا دي بونايطو، لكنه وإن استحضر المفكر اللاهوتي توما الأكويني، الذي استفاد من ابن رشد، إلا أنه تفادى أن يخبرنا بذلك، هذه المرة. إضافة إلى أن لوحة الغلاف ما هي إلا جزء من جدارية الفنان الإيطالي أندريا دي بونايبينو دي فريسي، والتي تحمل اسم "انتصار القديس توما الأكويني"، وهي تلتقي مع عمل آخر يحمل اسم "تأليه القديس طوما الأكويني"، لبينوسو غوسولي، يبدو فيه ابن رشد أسفل اللوحة، بينما يجلس القديس الدومينيكاني اللاهوتي توما الأكويني عاليا، تحفه الملائكة وتبارك مذهبه، إضافة إلى لوحة أخرى تحمل الاسم نفسه للفنان الإسباني فرانسيسكو فورتباران.

بروني على انتقادات اللاتينيين لابن رشد، وفي مقدمتهم توما الأكويني، حين يرى أن صاحب "تهافت الفلاسفة" هو الذي أعلى من مكانة العقل، لأن الإنسان، حسب، إنما "يتحدد بوصفه حيوانا ساميا قادرا على التفكير، إلى درجة أنه لا يوجد إنسان بحصر المعنى خارج العقل".

فحيث يوجد الإنسان يوجد العقل، لأنه مفتوح دوما على المعقولة. ويفرق ابن رشد بين العقل بما هو قدرة، وبما هو مقدر، أو أداء وإنجاز وممارسة، أي العقل المنفعل. وهذا "العقل المنفعل الذي يعتبر شرطا للتفكير، ثم للتذكر، هو الخيال".

ما يؤكد مرة أخرى انتصار الرشدية للخيال، باعتباره التجلي العملي لفعل التفكير كما يمارسه العقل.

وحسب ابن رشد، دائما، يولد الإنسان وهو يمتلك هذه القدرة على التفكير. يشبه الأمر الملكة اللغوية لدى الطفل، حسب تشومسكي، أو تلك القدرة اللغوية التي تجعله قادرا على تعلم لغة أي بيئة وضع فيها، وهو لما يزل رضيعا. لكن ملكة التخيل هذه هي مقدره بعيدة، وليست هي القدرة التي يمتلكها الإنسان عند الممارسة. ولذلك فإن هذه الملكة

إبنا توفر "استعدادا غامضا سابقا على المقدرة، والتي اعتبرها ابن رشد تهبوا خلاصا".

يفرق ابن رشد بين ثلاث قوى في الدماغ، أولها الخيال، أو القوة التخيلية، والتي تحفظ ما يدركه الحس المشترك. وهناك الفكر، أو القوة المفكرة. ثم هناك القوة الحافظة، أو القوة المصورة، ما دامت تقوم على استرجاع ما عملت عليه القوة المفكرة على تجريده.

ومعلوم أن الخيال هو طريق من طرق التصديق عند ابن رشد، ذلك أن "طرق التصديق اثنين: إما الشيء نفسه وإما مثاله". فالأول يتم عن طريق البرهان، والثاني يتم عن طريق ما أسماها ابن رشد "القوة التخيلية".

فالخيال عند صاحب "فصل المقال" هو "قوة مصورة بطريقة فعالة"، وهي قوة "تشكيلية"، كما يقول برونو. وبهذا المعنى، يسمى هذا الخيال فاعلا لأنه يقوم بإنتاج الصور، ويعمل على تخليد الأثر. و"الخيال يتذكر أثرا داخل المفهوم والعقل والصورة"، حسب المفكر الفرنسي، ما دام المفهوم، كما يقول ابن رشد، "يرتكز على الخيال ويرتبط به".

ابن رشد أحد أعظم الفلاسفة الذين أسهم فكرهم في ولادة فكر الأنوار الأوروبي

من هنا، يخلص صاحب كتاب "ابن رشد المقلد" إلى أن عبقرية هذا العقلاني العربي "تكمن في تصوره للعقل"، أما الحل بالنسبة إليه فإنه "يكمن في الخيال: إذ بواسطته، وأثناء نمو الفرد وتجلي واتساع التجربة بجسده تتميز قوة العقل لديه". أي أن هذا العقل باعتباره قوة كاملة لدى الإنسان، تنمو وتتطور، لتتعقل وتتخيل وتتصور، حسب المقولات الثلاث، كلما اتسعت تجارب الفرد ومداركه.

كذلك أن العقل كتاب "أنا أتخيل" لجان باتيست برونو فهما مغايرا للمتن الرشدي، يتجاوز مفهوم "العقل" الذي توقف عنده الدارسون السابقون لفلسفة ابن رشد، متجها نحو العناية بمفهوم "الخيال"، باعتباره مفهوما مركزيا عند فيلسوف قرطبة.

ذلك أن العقل قد يدرك الأشياء والظواهر ويستوعبها، لكن الخيال هو القادر على الخلق والابتكار والاكتشاف، وعلى تجاوز التقليد، والتطلع إلى معنى جديد.

وتلك واحدة من الخلاصات الكبرى التي تدعونا إلى إعادة قراءة ابن رشد ليس بالعقل وحده، بل بالخيال الذي يسمح لنا بتجديد فكر ابن رشد، والانطلاق من حيث انتهى صاحب "فصل المقال"، نحو أساق التفكير والخيال.

الفرح ببلوغ الحكمة

جديد الفيلسوف الفرنسي الراحل كليمان روسي (1939-2018) كتاب بعنوان «الفرح أعمق من الحزن»، يضم ثمانية من جملة الحوارات الخمسة عشر التي أجراها مع ألكسندر لاكروا، رئيس تحرير «مجلة الفلسفة»، ما بين 2006 و2017. ويكتشف فيه القارئ نظرة روسي إلى مجموعة من الفلاسفة



أمثال أفلاطون، ونيقوش، وسبينوزا، وهايدغر، وبرغسون، مثلما يكتشف دفاع الرجل عن واقعية مطلقة، راديكالية، فلا شيء موجود في اعتقاده غير الواقع، وهو يقبل على هذا الواقع في شتّى حالاته، حتى وصف بكونه فيلسوف الفرح والتراخيديا، دون أن يكون متشائما. ومن أقواله الشهيرة: «كل شيء ضاع، لنفرض» أو «لنطمئن، كل شيء على غير ما يرام»، التي كان يطلقها كعلاج لهذه المرحلة المسكونة بالبحيرة والجزع، وينصح الإنسان بأن يبقى فرحا رغم وضعه ككائن منذور للنفس، وأن يكون قادرا على معانقة وجوده بمرح بليغ مرتبة الحكمة والسعادة، وعلى استبعاد كل داع لليأس.

الرباعي المؤسس للفكر الفلسفي الحديث

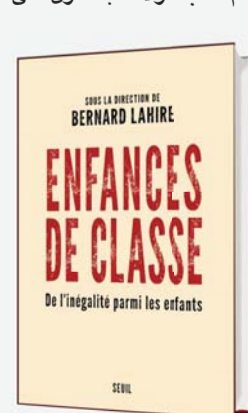
في كتاب «عصر السحرة» يستعرض الألماني فولفرايم إيلينبرغر سيرة أربعة مفكرين هم لودفيغ فيغشتاين، ومارتن هايدغر، وإرنست كاسير، وفالتر بنيامين، مثلوا منعرجا في الفكر الغربي ما بين الحربين العالميتين، ما بين 1919 و1929 تحديدًا، فقد عالجا، كل على طريقته، قضايا ساخنة في مرحلة بالغة التوتر،



من نقد التكنولوجيا وأزمة الديمقراطية إلى الانتكاف الهوي والتغذية المستدامة، وتاولوها برؤية فلسفية جديدة وضعت أسس الفكر الغربي الحديث. وقد تتبع الكاتب سيرة أولئك المفكرين العباقرة من النمسا والغابة السوداء إلى باريس وبرلين لمعرفة منطلقاتهم وطرائق تفكيرهم ومشاكلهم الوجودية، والوقوف على موقعهم من مجتمعاتهم في تلك الحقبة العسيرة، التي شهدت صعود الفاشية والنازية والأزمة الاقتصادية العالمية. كتاب هام جمع بين البيوغرافيا والتحليل الفلسفي وحاز عنه صاحبه جائزة الاتحاد الأوروبي.

التفاوت بين الأطفال

«طفولات الطبقة - في التفاوت بين الأطفال» كتاب جماعي أشرف عليه برنار لاهير، أستاذ علم الاجتماع بدار المعلمين العليا في ليون، يبين كيف أن البشر لا يولدون متساوين، ولئن تناولت الخطب العالمية والسياسية التفاوت الاجتماعي، ماديا وثقافيا، فإنها ظلت في الغالب مجردة. ومن ثم أكتب هؤلاء الباحثون على



توضيح واقع الأطفال وتقديم صورة جلية عن الفوارق الصارخة في ظروف عيشهم الملموسة، من خلال بحث ميداني ما بين 2014 و2018 في مختلف المدن الفرنسية، ودراسة أوضاع خمسة وثلاثين طفلا ينتمون إلى شتى الطبقات الاجتماعية، الفقيرة والمتوسطة والعليا. وقد تميز البحث بجذته سواء من جهة جهازه المنهجي، أو من جهة طرائق تحريره، ليرسم بورترية أنثوسوسيولوجية وتحليل نظرية؛ غايته فهم حقيقة لا تقبل الجدل وهو أن الأطفال يعيشون في اللحظة نفسها في مجتمع واحد، وليس في عالم واحد. وأثر ذلك التفاوت على مصير الأفراد الاجتماعي.

